

الترجمة والسيمانيات

حسين حمري / جامعة منتوري

هذا البحث هو مقارنة للترجمة من خلال اشتغالها على اللغة وبواسطة اللغة كحدث سيميائي يطمح إلى إنتاج الدلالات وتوليد الآليات المساعدة لفعل الترجمة بعيدا عن النظرة التبسيطية التي ترى في عمل الترجمة مجرد حركة آلية انتقالية بين لغتين مختلفتين أو داخل اللغة الواحدة اعتمادا على مرصوفات ما قبلية.

من هذا المنظور يمكن اعتبار الترجمة حدثا يساهم في إغناء اللغة الهدف (نص الوصول) بأدوات تعبيرية مغايرة ومضامين مختلفة في سعيها إلى بلورة وعي جديد بأهميتها في واقعنا المعرفي وراهننا الثقافي.

0. من بابل إلى ... مأك لوهان

تبدو الترجمة وليدة حاجات التواصل، و لكي تتم هذه العملية فإنه ينبغي التمكن من لغتين على الأقل اللغة المصدر *Langue source* أي اللغة المنقول منها على حد تعبير صلاح الدين الصفدي⁽¹⁾ واللغة الهدف *Langue cible* أي اللغة المنقول إليها. ومن هنا يمكن أن نقول إن الترجمة هي نتيجة احتكاك *contact* لغتين⁽²⁾ سواء كان ذلك لأغراض وظيفية أو لأغراض علمية حضارية. ولا تتم عملية الاحتكاك إلا في إطار تواصل، لأن "الاتصال والاحتكاك يدفع إلى الترجمة"⁽³⁾ فيغني التجارب ويعمق الأواصر بين الأفراد.

وإذا كان تنوع اللغات يباعد بين الأفراد ويعمل على تشتيت البشر، فيضع بينهم الحواجز، حسب بعض النظريات الفلسفية العدمية، أو النظريات

السياسية والأنثروبولوجية [هومبولدت، سابير، رينان] التي ترى في هذه المسألة نقضا لجوهر الإنسان، فإن المقاربة الموضوعية ترى غير ذلك لأن في اختلاف اللغات وتعديدها تعبيراً عن تعدد مظاهر الإنسان وكشف عن جوانبه المختلفة والخفية وهي آية من آيات الخالق الذي يقول: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾⁽⁴⁾ واختلاف الألسن حسب هذه الآية هو اختلاف اللغات.

إن الانفجار الإعلامي الذي حول العالم إلى "قرية صغيرة" جعل من كل مظاهر الواقع ترجمة له⁽⁵⁾. وهكذا يتحول هذا النشاط من مجرد نقل المعارف من لغة إلى لغة إلى فهم وتفسير لحركية المجتمع وتحولاته وتجليات الواقع المتباينة.

إن هيمنة الشركات الإعلامية العملاقة وانتشار الأقمار الصناعية الكبيرة على المجال الإعلامي والعلمي وسيطرتها على فضاء الاتصال في سياق العولمة وعالمية المعرفة ومحاولة أصحاب هذه التقنيات المتطورة فرض لغة عالمية واحدة يعمق الشعور عند الإنسان بعودة "بابل" من جديد ويقيد بلغة واحدة هي لغة العلم والتكنولوجيا.

من هذا المنظور ينتقل مفهوم اللغة من مستوى العلامات الرمزية والمنظومات اللغوية إلى مستوى المنظومات العلمية والأنظمة المعرفية التي تعمل على إعادة هيكلة الفكر الإنساني وإعادة صياغة العلاقات الاجتماعية والبشرية صياغة جديدة.

و هذا الوضع نفسه هو الذي عرفه سكان بابل قبل أن تتبلبل ألسنتهم وتنفرق لغاتهم. وقد جاء في الكتاب المقدس: "وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة... وقالوا لهم بنين لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء... وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لأجميعهم وهذا هو ابتداءهم بالعمل، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملون لهم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا

يسمع بعضهم لسان بعض فبدهم الرب من هناك على كل وجه الأرض فكفوا عن بنيان المدينة لذلك دعي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض⁽⁶⁾.

وهذه العقوبة - حسب الأسطورة المذكورة - جعلت الناس يلجؤون إلى طرق أخرى للتواصل وهذا في غياب لغة مشتركة "وكان عليهم أن اخترعوا الترجمة ليتكلموا من التواصل"⁽⁷⁾ وقد حافظت كلمة "بابل" على بنيتها ودلالاتها في اللغات الهندو-أوروبية كلها و تقتزن دلالاتها دائما بالغموض والفوضى اللغوية وتعبر عن اللاتواصل.

وقد حاولت فلسفات الأنوار والفلسفات العقلانية [ديكارط، ليبنتيز] تجاوز حالة اللاتواصل بين البشر فنقلت الحديث من مستوى الخطاب إلى مستوى الأفكار الكلية Les universaux. وقد صاغ هذه النظرية ليبنتيز في كتاب: مقالة حول التفاهم البشري⁽⁸⁾ محاولاً صياغة حساب لغوي calcul معتمداً على المبادئ الحسابية principes algébriques. وهذه المحاولة الفلسفية ذاتها يمكن اعتبارها ترجمة لتجليات العقل وتفسير لكلياته وقوانينه بواسطة اللغة.

ونجد أن عبد القاهر الجرجاني (471 هـ) قد اعتبر الكليات العقلية شكلاً من أشكال الترجمة، لأنها تجمع بين اللغات المختلفة وتقرب بين الأمم والأجناس عندما قال: فالمرجع فيه والوجه إلى العقل المحض وليس للغة فيه حظ فلا تحلى ولا تمر والعربي فيه كالعجمي والعجمي كالتركي، لأن قضايا العقول من القواعد والأسس التي ينبنى غيرها عليها والأصول التي يرد ما سواها إليها⁽⁹⁾. وبهذا المعنى تصير الترجمة تفسير لأشكال المعرفة⁽¹⁰⁾ سواء كانت المعرفة في جانبها العلمي، أي منظومة المعارف والعلوم أو في جانبها الانفعالي العاطفي.

I- السيميائية:

تبدو السيميائية، في الوقت الراهن، علماً رائداً في مجال العلوم الإنسانية وذلك لما شاع عنها من صرامة في التحليل ودقة في النتائج. وقد استمدت هاتين الميزتين من علمين يعتبران خاصيتين من خصائص الإنسان وهما اللسانيات التي تدرس الجوهر البشري وهو "اللغوس" والرياضيات التي كانت وما زالت الأورغانون أي مجموع القواعد العقلية وجبر الفكر الإنساني.

هذان العلمان زودا السيميائيات بالأدوات الإجرائية الكفيلة بجعلها قواعد العقل. ومن هنا استمدت السيميائيات قوتها كعلم قادر على حل معضلات العلوم الإنسانية بطريقة علمية ودقيقة. هذا العلم الجديد، بضرب جذوره في الممارسات الفكرية القديمة ابتداء من علم الطب مع جالينوس وهيبوقراط في سياق الحديث عن الأعراض المرضية والدلائل الجسمية، وأيضاً عند علماء المنطق وخاصة الرواقيين منهم الذين يرون أن المنطق وكل ملحقاته وأدواته هي في الحقيقة علامات ورموز نستدل بها على سلامة العلم وقدرته على التعامل مع المادة التي يدرسها، وأيضاً عند علماء الأصول والمفسرين الذين تبنا الاتجاه الرمزي الصوفي أو ما يسمى بالتفسير الإشاري للقرآن الكريم، الذي ربما، يكون قد أضافه التحليل الحديث : أنه جعل من السيميائيات علماً مبنياً بناء منهجياً ومستقلاً عن العلوم والمعارف والإيديولوجيات التي يتخذ منها مجالات للبحث والمعاينة. وقد تمت هذه الاستقلالية عن طريق نقدها للخطابات السائدة ولم تستثن حتى الخطاب العلمي. وهذا ما جعل هذا العلم يكسب ثقة الباحثين ليتحول عند بعض الأنصار إلى عقيدة راسخة وممارسة لا يرقى إليها الشك.

I-1- تعريفها :

تعددت تعريفات السيميائيات بتعدد مجال أنشطتها، إلى درجة أن كل علم يحاول تعريف سيميائيته الخاصة، وقد يدفع الغرور ببعض الباحثين إلى

تعريف خاص به. قد تكون هذه الحقيقة ثابتة في بدايات اكتشاف هذا العلم وبعثه من جديد. ولكن الملاحظ لهذا الكم من التعريفات يكتشف أنها تشترك في الخصائص الثابتة والمكونات الأساسية للسميانيات ولكنها تختلف من حيث الاهتمامات ومجالات التطبيق.

وتتفق جميع التعريفات على أن السميانيات "هي علم نظام العلاقات"⁽¹¹⁾. وهذه العلامات أو الرموز تختلف من حيث الوظيفة ومن حيث البنية من حقل معرفي إلى حقل معرفي آخر وأيضاً من حيث علاقاتها مع النظام المعرفي الذي تتعامل معه. من هنا يمكن طرح السؤال التالي : ما معنى النظام السيميائي أو الأنظمة السيميائية ؟

إن النظام السيميائي هو "مجموعة من الرموز التي تنتمي إلى نوع أو مجموعة من الأنواع السيميائية تحكمها منظومة من القواعد التي تضبط طرائق نظمها أثناء صياغة النص السيميائي"⁽¹²⁾. وهكذا يتجلى لنا أن الرموز (أو السمات) تفقد صفة السيميائية إذا لم تحكمها منظومة من العلاقات التي تحدد طرائق نظمها على المستوى الاستبدالي Paradigmatique كما على المستوى الاستنباعي Syntagmatic، أي أن النظام يشدد على العلاقات البنيوية بين الرموز في مرحلة أولى، ثم على وظيفتها داخل النسق السيميائي في المرحلة اللاحقة.

وقد حدد أ.ج. غريماس⁽¹³⁾ A-J. Greimas ثلاث مراحل تتعلق بتعريف السميانيات بعد أن أشار إلى تعدد المفاهيم بهذا الصدد، فقد تعني:

- أ. خاصية متجلية تسعى إلى معرفتها.
 - ب. موضوع معرفة يظهر أثناء أو عقب وصفه.
 - ج. مجموع الوسائل التي تجعل معرفته ممكنة.
- هذه المراحل الثلاث متشابكة ومتعلقة تجعل من السميانيات ممارسة تسعى إلى إنتاج الدلالة أو إلى وصفها والقبض على خصوصيتها النوعية، وهذا

يعود إلى كون السيميائيات ترى "أن العالم بالمفهوم الواسع نظام من العلامات والإشارات والرموز، و بالتالي فهو نص كبير، كما يرى ذلك أيضا المتصوفة، لأنه كون من الدلالات التي تتجلى من خلال العلامات في حالة اتصالها وانفصالها وفي حالة حضورها وغيابها"⁽¹⁴⁾ وهو ما يعني أن خاصية التعالق، سواء كان ذلك في جانب أو آخر حيث يؤسس للنظام السيميائي ويجعل منه منظومة رمزية تقوم بإنتاج الدلالات و تفصلها داخل الثقافة وأنساقها الفكرية والإبداعية.

I-2- مجالاتها

لقد استحوذت السيميائيات كممارسة على فكر المنظرين وشغلتهن لمدة عن ما عداها من الممارسات وذلك لتعلقها بالخاصية الجوهرية للإنسان التي هي اللغة حتى غدا السيميائي لا يرى في الإنسان والعالم المحيط والأشياء إلا لغة متعالية تضبط إيقاعات حياته وتتحكم في كل حركاته. وانطلاقا من هذا الفهم يغدو مجال السيميائيات هو كل الممارسات الإنسانية الحسية منها والمجردة. هذا على المستوى النظري، أما الإمكانات التي تمنحها السيميائيات باعتبارها علما يهدف إلى نقد الخطاب وتفكيك آلياته ووصف مستوياته مهما كان حجمه ومهما كانت طبيعته تتمثل في الكشف عن الدلالات، فالخطابات كلها أشكال للتواصل وكلها حاملة لدلالة، لأنها "تعنى بالإنسان باعتباره علامة Homo symbolicus كما يرى كاسيرر E. Cassirer وكل الممارسات الإنسانية بما أنها ممارسات تواصلية، في المقام الأول، وأشكال دلالية بالدرجة الأولى Modi Significandi"⁽¹⁵⁾. فإنها يمكن أن تكون مجالاً للبحث السيميائي.

أما على صعيد الممارسة فإن السيميائيات قد ركزت نشاطها على السلوكات اللغوية وتجلياتها التعبيرية واعتمدتها ركيزة أساسية للعمل السيميائي مهمة بذلك جانبا كبيرا من المظاهر السيميائية التي يمكن أن تشكل مجالاً خصباً للكشف والمعاينة والوصف. وهذه الممارسات جعلت مجال السيميائيات يتقلص

وبيضيق ليعود إلى النقطة التي بدأ منها سوسير Saussure تفكيره وهي العلاقة الوطيدة بين اللسانيات والسيميائيات.

وبما أن الترجمة هي ممارسة لغوية لسانية من الدرجة الأولى فإنها تشكل موضوع مقارنة سيميائية يمكن أن تطبق عليها إجراءاتها وآلياتها وتتخذ منها مجالاً للمعابنة والتحليل.

II - الترجمة:

إذا ما تصفحنا القواميس العربية والأجنبية فإننا نجد أنها تتقارب في تعريفها لهذا النشاط اللغوي الفكري، وحتى أيضا على مستوى الممارسة. فهي تنيد أولاً بالتفسير، وهذا يعني أن الترجمة تعتبر ضرورة من ضرورات التفاهم والتواصل أي أنها وسيلة للفهم والإفهام على حدّ تعبير الجاحظ⁽¹⁶⁾ فيكون الفهم داخل اللغة الواحدة بتطويع النص المراد فهمه إلى مقولات معرفية مغايرة التي يطرحها النص والتفاهم سواء عن طريق استعمال لغة أجنبية أو بتغيير بنية التراكيب و صيغ المفردات حتى يحصل التفاهم.

والطريق الثاني هو التغيير والتحويل Transformation وهذه المرة لا يتعلق باللغة الواحدة أي داخل الجهاز اللغوي الواحد ومقولاته التعبيرية وأنساقه البنيانية ولكنه الانتقال إلى لغة أجنبية قد تكون لها قرابة عائلية بالأولى وقد تكون غريبة عنها تماماً، مختلفة بالضرورة بمقولاتها النحوية وأنساقها التركيبية وبنياتها المفرداتية ومعجمها ودلالاتها ونظرتها إلى العالم وصيغ إيجادها للمعاني. و الترجمة بوصفها "نشاطا لغويا تعد إحدى أكثر الممارسات اللغوية تعقيداً لما تتطلبه من مهارة تمثل النص المترجم تمثيلاً مدرّكاً لخصائصه البنيوية وقرائنه الثقافية، ومن جهة أخرى فهي مصدر هام في عملية التواصل الإنساني وجعله مستوعبا على الدوام لخبرات الآخر وإنجازاته"⁽¹⁷⁾.

إن الترجمة، بهذا المفهوم، لا تقتصر على التحويل والنقل عن لغة أخرى والتعامل مع اللغة "كمرصوفة" (جرد inventaire) من الكلمات المعزولة

عن كل سياق حضاري أو ثقافي، بل إن كل لفظ هو بمثابة كائن لغوي يرتبط بالممارسات الإنسانية، وبالتالي فهي تختزن تراثا تاريخيا وثقافيا. و"مستويات الحضارة والثقافة في اللغات تقوم على حقول سيميائية في ألفاظها ومصطلحاتها وتعبيرها وهو ما يدفع جورج مونان إلى تأكيد استحالة التوافق في الترجمة لعنصرين من نفس الحقل السيميائي داخل لغتين مختلفتين، وهكذا تظل المفاهيم عائمة بين اللغات سواء انتمت إلى ميدان براغماتي أو أسلوب، أو سيميائي"⁽¹⁸⁾ واشترط ارتباط عمل الترجمة بالمكونات الثقافية لا يعتبر اكتشافا جديداً، بل إن هذه العناصر النظرية المتعلقة بالترجمة كانت قد أثّرت من قبل الجاحظ الذي يقول "ولا بد للترجمان أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها"⁽¹⁹⁾ وهذا يعني أنه، إضافة إلى تمكن المترجم في اللغتين، يجب أن يكون متمكنا من المعرفة التي ينقلها. والمعرفة في هذا السياق لا تقتصر على الحقائق العلمية التي يقبلها العقل دون مقاومة كبيرة ولكنها تعني القرائن والدلائل الثقافية التي شهدت ميلاد واستواء المعرفة.

II-1- في القديم:

إذا كان الباحثون يرون أن العرب أمة الشعر و أمراء البيان، فإننا من منطلقنا هذا نقول إن العرب أمة الترجمة، ولنا في حركة الترجمة التي نشطت في كل الاتجاهات ومختلف مجالات المعرفة في العصر العباسي خير مثال وقد حافظت على ترجمات بعض النصوص اليونانية التي صارت الآن أصولها مفقودة⁽²⁰⁾ وتحولت إلى قاعدة لانطلاق النهضة الأوروبية فهذا خير دليل على زعمنا.

وإذا بحثنا في الفكر الإنساني عن التنظير لفعل الترجمة، فإننا نلاحظ أن العناصر النظرية تكاد تكون غائبة ماعدا بعض الإشارات والتلميحات التي لا يمكن أن تكون هيكل نظرية متكاملة، "ولكن الذي عرفنا بطرق الترجمة وشروطها. ومناهجها - في حديث وجيز - جماعة لم يكابدوا الترجمة، ولم

الترجمة والسيميانيات

يقوموا بها، كالجاحظ وصلاح الدين الصفدي.⁽²¹⁾ وهذه الملاحظات لا ترقى بشكل من الأشكال إلى أدنى مستويات التفكير النظري لأنها لم تتعرض إلى الجانب المنهجي ولا إلى الآليات المتعلقة به ولا الأدوات اللازمة إلى ذلك.

وعلى صعيد الممارسة نجد أن نشاط الترجمة، في العالم كله، لم يتوقف عن الحركة ولم يتحدد في مجال علمي مخصوص، فنجد أن صلاح الدين الصفدي يقدم مجموعة من الملاحظات النظرية حول الترجمة والتي استنبطها من التراث العربي الضخم في الترجمة ويحصرها في طريقتين:

الأولى: وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية، وما تدل عليه من المعنى، فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى، فيثبتها، وينتقل إلى الأخرى كذلك، حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه⁽²²⁾.

هذه الطريقة تسمى الطريقة الحرفية Mot-à-mot أو Littérale وهي تتعامل مع اللغة بوصفها مواد جامدة لا علاقة لها مع الواقع (فهي تجريدية أو مطلقة) ولا مع التاريخ (لأن دلالاتها جامدة ولا تخضع للتطور أو الصيرورة)، فهي من هذا المنظور عبارة عن جرد inventaire من الكلمات التي لا تتمفصل في التاريخ أو الحضارة كما أنها تفتقد لأية علاقة بنيوية (التعليق) أو وظيفية مع غيرها من الكلمات.

و تفتقد هذه الكيفية أيضا إلى النظرة إلى اللغة باعتبارها منظومة من العلاقات الخلاقية والعلاقات الإنسانية وكذلك فهي تعجز عن التمييز بين الاستعمالات اللغوية الاستعمارية والاستعمالات المفهومية الاصطلاحية، وهو ما -جعل عبد القاهر الجرجاني يلاحظ أن المجاز لا يمكن ترجمته أو نقله إلى لغة أخرى لأن ذلك يفقده دلالاته الإيحائية والخفية حيث يقول: **لو جاز ذلك أن يكون المترجم للنعمة باسم لها في لغة أخرى وأضعاً اسمها من تلك اللغة في مواضع لا تقع النعمة فيها من لغة العرب وذلك محال**⁽²³⁾.

أما الطريقة الثانية التي اعتمد عليها العرب في الترجمة فهي: "أن تأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفها"⁽²⁴⁾ وهذه الممارسة تبدو من الناحية الإجرائية أكثر قبولاً من حيث واقع الترجمة: لأن الفهم والإمساك التلقائي بالمعنى هو في الحقيقة سيرورة استنباطية"⁽²⁵⁾ وإذا كان الفهم يتعلق بالمعنى، والمعنى لا يمكن أن يكون معطى ما-قبلية، à priori، بل يخضع لشروط الزمان والحضارة والثقافة فإن هذه الطريقة تجعل من الترجمة نشاطاً تأويلياً ممتازاً.

هذه المقاربة لفعل الترجمة كممارسة هي التي جعلت العرب تقدم على الترجمات العديدة للأثر الواحد قصد تحري الدقة و الحقيقة العلمية أو مراجعة بعضها الآخر وهو العمل الذي قام به جيش بن الأسم بأمر من حنين بن اسحق. ويمكن أن تكون هذه الترجمات العديدة مجال مقارنة مقارنة وموضوع دراسة للمتغيرات الشكلية والثوابت المضمونية لتحديد بنية النص المترجم.

II-2- العصر الحديث :

سينصب الحديث في هذا المقطع على الترجمة باعتبارها مظهراً سيميائياً بالدرجة الأولى وآلية لتوليد الدلالات والعلامات والرموز وليس رصداً لأهم المحطات التي مرت بها ولا تاريخها وأهم ممثليها. إن الهدف الذي نرمي إليه هو تحديد أهم المفاصل السيميائية التي تجعل من الترجمة منتجاً سيميائياً قابلاً للبحث والمعاينة.

إن وعي العالم الحديث بضرورة الترجمة ودورها على كل المستويات قد أعطاه طابع العلم المؤسسي بعد أن كانت في القرنين الماضيين تُدرس ضمن برامج تعليم اللغات. وهذا الاهتمام جعل العلماء والباحثين يطمحون إلى

صياغة النظريات لتفسير آليات الترجمة ومناهجها وكل واحد ينطلق من اهتماماته الثقافية واختصاصه العلمي محاولاً تقديم إجابات نظرية عن كيفيات اشتغال فعل الترجمة والكشف عن القوانين الداخلية التي تحكم هذه العملية.

ولهذا نجد أن النظريات قد تعددت بتعدد المناهج التي تعاملت مع الممارسات اللغوية الحديثة و الخطابات الاجتماعية المتباعدة سواء ما تعلق منها بالإبداع أو ما تعلق منها بالوصف أو التحليل، وهذه التطورات تدفعنا إلى التفكير بأن المقاربة المنهجية لنظرية الترجمة لا يمكن أن تتم إلا بالتحليل العلمي لصيرورة الترجمة ذاتها مستعينين باللسانيات، ولاحقاً، بالسيمانيات⁽²⁶⁾.

والتأكيد على دور اللسانيات، ومن بعدها السيميانيات، في البحث عن صياغة نظرية للترجمة لدليل على العلاقة الوطيدة بين الترجمة والعلمين المذكورين لأن مجال كل هذه النشاطات هو اللغة. واعتماداً على هذا الواقع تأسس علم الترجمة (أو نظرية الترجمة) La traductologie متبنيًا للاتجاهات الحداثية التي تمت في سياق العلوم الإنسانية بصفة عامة وتعددت المقاربات التي اتخذت من نشاط الترجمة ميداناً للبحث والتحليل مثل المقاربة اللسانية linguistique والمقاربة التواصلية communicative والنظريات اللسانية والمقاربة التأويلية interprétative. وهذه المقاربات وإن اختلفت في جوانبها الإجرائية ومقولاتها التحليلية فهي تتفق على أن الترجمة هي فعل لغوي-سيمائي.

III - علاقة الترجمة بالسيمانيات

إن العلاقة بين السيميانيات والترجمة تبدو طبيعية، إن لم نقل بديهية، فكلهما يتعامل مع اللغة كمنظومة رمزية وكتركيب وكدلالة، وإن اختلفت مستويات تناولها. فإذا كانت الترجمة هي انتقال المعنى من لغة إلى أخرى، أو باصطلاح علماء الترجمة من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف، فإن دور السيميانيات يتمثل في وصف وتحليل هذه الحركة وهذا التحول وإن أي كلمة أو

مجموعة من الكلمات مهما كانت هي في الحقيقة حدث لغوي، ولنقل بأكثر دقة دون أي تضيق هي حدث سيميائي⁽²⁷⁾.

وهذه الملاحظة تصدق على الترجمة كما تصلح للنص الأصلي، وبالتالي فإن عدم التمكن من الآليات السيميائية أدواتها الإجرائية قد يؤدي إلى تدخل في الحقول المعرفية التي يكون موضوعها اللغة، أو الأنساق اللغوية ذات الكثافة الرمزية.

ولكن الترجمة تتمفصل داخل المنظومة السيميائية عن طريق المعنى حيث نلاحظ إنه: بالنسبة للساني، كما بالنسبة للمستعمل العادي للغة فإن معنى الكلمة ليس هو إلا ترجمته بعلامة أخرى يمكن تعويضها بعلامة أخرى⁽²⁸⁾. وبهذا المفهوم يصير المعنى عبارة عن ترجمة أي تعبير عنه بعلامات أخرى.

وبما أن المعنى لا يتأتى إلا من الطابع الخلقي différentiel للغة، كما رأى ذلك دوسوسير ومن بعده أندريه مارتنيه A. Martinet، فإن أية لغة مهما كان مستواها فإنها تبدو كمنظومة سيميائية لها بنيتها الخاصة وقوانينها الداخلية التي تتحكم فيها ولا يمكن أن تنتج المعاني والدلالات إلا عن طريق اختلافها^{٢٩}. ونجد أن هذه الفكرة ضاربة جذورها في الفكر الفلسفي المتصل باللغة وقد عبر عنها عبد القاهر الجرجاني بقوله: "إن اللغة تجرى مجرى العلامات والسمات، ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه وخلافه"⁽²⁹⁾ وهذا التعريف للغة يمكن اعتباره تحديداً لوظيفتها السيميائية Sémiosis، فقد استعمل الجرجاني مصطلحي العلامة والسمة صراحة واشترط لحدوث المعنى وجود الطابع الخلقي أي سيرورة الترجمة.

III - 1- العلامة اللغوية:

قد يبدو التأكيد على الطابع اللغوي للترجمة وعلاقتها بالسيميائيات من الأمور البديهية وذلك لأن الترجمة هي منتج لغوي بالدرجة الأولى، وأن

السيمانيات هي المنظومة الإجرائية لوصف هذه العملية، لأنه: حالما نصف بنية لغة بواسطة لغة أخرى، وحالما ندخل إلى اللسانيات المقارنة، فإن عمليات الترجمة تصبح حاضرة باستمرار⁽³⁰⁾.

من خلال هذه الملاحظة تتجلى لنا قوة العلاقة الموجودة بين الترجمة واللسانيات لأن العمليات اللسانية حاضرة في كلا المجالين، ولكن ما يفرقهما هو الهدف من هاتين العمليتين. وقد حصر خنفي بن عيسى الفرق بين اللساني والمترجم أثناء تعاملهما مع اللغة في نقطتين:

أولاً: من حيث المنهج، فاللساني منهجه معياري *normatif*، لأن مراعاة القواعد في الإدلاء اللغوي هي الأساس بالنسبة إليه، أما المترجم فهو سلوكي المنهج وذرائعي الاتجاه.

ثانياً: اللساني يميل إلى التصلب في الرأي، أما المترجم فلا يرى غضاضة في أن يغير رأيه وإن يعدل عن مصطلح كان قد اعتمده إلى مصطلح آخر يعتبره أدق من الأول⁽³¹⁾.

وهذان الاختلافان في التعامل مع اللغة-الموضوع يؤكدان ترابط المجالين: الترجمة اللسانية (أو السيميانيات) وهو ما جعلهما حتماً يواجهان المشاكل المنهجية نفسها عندما: "استوعب اللسانيون فكرة أن القضايا التي تطرحها الترجمة هي من اختصاصهم وصلب اهتماماتهم، و تظن المترجمون إلى أنهم كانوا جد متطرفين عندما اعتقدوا أن حل مشاكلهم دون العودة إلى اللسانيات ممكن⁽³²⁾ وهو ما يؤكد عمق الترابط بين هذين الاختصاصيين.

وفي غمرة حماس اللسانيين ومحاولة انتصارهم للعلم الذي يدافعون عنه يجعل جورج مونان G. Mounin الترجمة تابعة للسانيات "وخاصة المعاصرة في سياقها البنيوي والوظيفي توضح للمترجمين أنفسهم قضايا الترجمة"⁽³³⁾ ويذهب ذات الباحث إلى دمج الترجمة باللسانيات عندما يعتبر أن الترجمة هي بدءاً ودائماً عملية لسانية وأن اللسانيات هي القاسم المشترك وقاعدة

لكل عمليات الترجمة»⁽³⁴⁾ وفي هذا الحكم إلغاء لخصوصية كل من الترجمة واللسانيات وتعطيل لوظائف كل منها، ومع ذلك فإننا نؤكد أن الترجمة "مظهر لغوي"⁽³⁵⁾ وأن علاقتها باللسانيات هي علاقة موضوع بمحمول على حد تعبير علماء المنطق العرب.

III - 2 - المظهر التواصلی

إن الهدف الأساسي من الترجمة ليس إنتاج صياغات لغوية متطابقة أو متنافرة مع صياغات سابقة عليها ولا مقارنة بين بناها ورؤيتها إلى العالم، ولكن التواصل بين شخصين أو شعبين يباعد بينهما اختلاف اللغة يصبح أمراً ممكناً باستعمال الترجمة وهو ما جعل وورف Whorf وسابير Sapir يقولان : "إن اللغات مختلفة بالأساس لهذا فنحن نترجمهما"⁽³⁶⁾.

إن المقاربة التواصلية Communicationnelle تبين لنا أن الترجمة هي شكل من أشكال التواصل وتخضع لنفس الضوابط التي حددها رومان ياكبسون R. Jakobson لفعل التواصل ولكن بإزاحة décalage لمستويات النص/الرسالة وإذا كانت أطراف عملية التواصل تتكون - حسب ياكبسون - من مرسل و مرسل إليه تربطهما رسالة :

المرسل ← الرسالة ← المرسل إليه

في التخاطب العادي فإن المرسل هو الالفاظ أي الهيئة المنتجة للخطاب / النص و المرسل إليه هو المتلقي للخطاب و الرسالة هي موضوع الخطاب، فإن الوضع الترجمي يفرض وجود ملحق جديد لنفس الرسالة ولكن بواسطة منظومة لغوية مغايرة لها سنها الخاصة و تراكيبها المختلفة، و هكذا يغير المرسل إليه موضعه الأول ليتحول في مستوى آخر إلى مرسل فيقوم بتحويل الرسالة إلى مضمون جديد ويبحثها باتجاه مرسل إليه (أو متلق) ثان. ويمكن أن نمثل لهذه الوضعيات بالترسيمة التالية :

المستوى (I) ← المرسل (I) ← الرسالة (I) ← المرسل إليه



المستوى (II) ← المرسل (II) ← الرسالة (II) ← المرسل إليه (II)
 إذا استعملنا مصطلح علماء الترجمة فإننا يمكن أن نعبر عن المستوى I باللغة المصدر والمستوى II باللغة الهدف، ويمكن أن نلاحظ أن العمل الترجمي يقوم بتحويل الهيئات التواصلية Instances Communiquatives مع الإبقاء على عنصر واحد هو المرسل إليه في المستوى الأول (اللغة المصدر) الذي يتحول في المستوى الثاني (اللغة الهدف إلى مرسل، وهو بهذا الوضع يعتبر عنصرا مفصليا يسهل الانتقال من المستوى الأول إلى المستوى الثاني.
 إن هذه الوضعية المزدوجية التي يتمتع بها المرسل إليه (I) المرسل (II) هي التي تعطي للمترجم تميزه عن الهيئات التواصلية الأخرى لأنه يتم فصل في مستويين مختلفين و هذا بفضل تمكنه من لغتين مختلفتين و نظامين سيميائيين متباينين.

غير أن جان كوهين يرى أن عملية الترجمة تقتصر على إعطاء تعبيرين مختلفين لنفس المضمون⁽³⁷⁾، و يدخل المترجم في حلقة التواصل فيقدم الشكل الآتي:

المرسل ← الرسالة I ← المترجم ← الرسالة II
 ← المرسل إليه

إن فهم كوهين لثنائية التعبير والمضمون كحقيقتين مستقلتين، أي بتغيير التعبير (عن طريق تبديل اللغة) وثبات المضمون يلغي الجدلية بينهما ويحولها إلى آليتين تشتغل كل واحدة على حسابها الخاص فيه الكثيرين الشطط وسوء الفهم و هو ما جعله يقارب مفهوم التواصل بالترجمة مقارنة نسقية تتابعية طويلة وهو ما قد يوحي بأن الهيئات التواصلية تتم فصل على مستوى واحد.

كنا قد شددنا على طبيعة الترجمة اللغوية، وهذا يعني أن وظيفتها الأساسية والجوهرية هي التواصل، ثم بعد ذلك تقوم بتحديد الأهداف من الترجمة، و هذا ما عبر عنه نور الدين أفايه بقوله: "إن التواصل معطى حاضر

بالضرورة في كل تبادل رمزي، كلامي أو لغوي، بل إنه من الصعب تصور تعريف مقنع للغة بدون أن يحيل، بشكل من الأشكال، إلى مقولة التواصل⁽³⁸⁾ و الترجمة بهذا المفهوم هي صيغة مخصوصة للتواصل والتبادل الفكري والمعرفي، ولهذا لا يمكن حصرها في جانبها التقني أو الشكلي بل يجب التركيز على جانبها التداولي للقبض على "طبيعة العلاقات المتبادلة بين مجتمعي النص المترجم منه والمترجم إليه"⁽³⁹⁾.

وهذا التواصل يجعل من المترجم وسيطا بين نصين مختلفين، أي بين مرسل I - يختلف من حيث المرجعية اللغوية عن المرسل إليه II، و هو ما يجعل الترجمة التواصلية "تحاول أن تحدث أثرها في القارئ الثاني"⁽⁴⁰⁾ أي أن المترجم يركز على الوظيفة التأثيرية للغة كما حددها ياكبسون. ولهذه الإعتبارات عدّ جورج مونان "الترجمة حالة من حالات التواصل"⁽⁴¹⁾.

III-3- العلاقة السيميائية

تؤكد السيميائيات على أن اللغة منظومة من العلامات، وهذه العلامات اللغوية ترتبط فيما بينها بقواعد وظيفية وبنوية وهو ما يجعل منها نظاماً منسجماً ومتماسكاً ولكن ما دامت الترجمة هي بالأساس عملية تعالق بين لغتين ونظامين ثقافيين مختلفين فإن العلاقة بين هذين النظامين هي علاقة سيميائية من الدرجة الأولى.

ومهما اختلفت تعريفات النشاط الترجمي وتباينت الآراء حول وظيفة الترجمة فإن اللغة كعلامات تبقى العناصر الأكثر إثارة للاهتمام سواء فيما يخص اللغة المصدر أو اللغة الهدف. وإذا تجاوزنا المستوى الأول للترجمة باعتبارها تفسيرا أو تنبيها للمعاني داخل اللغة الواحدة، فإن الترجمة بالمفهوم العلمي هي وضعية علائقية بين لغتين، وبما أن كل لغة تشكل نظاماً من الأنظمة، فإن أنظمة اللغة المصدر تختلف عن أنظمة اللغة الهدف⁽⁴²⁾. وإذا

كانت هذه هي وضعية الترجمة، فما الذي يمكن أن يؤسس العلاقة السيميائية بين المنظومتين اللغويتين؟

يرى يوري لوطمان Y. Lotman أن « إحدى المصادر الأساسية لحركية المنظومات السيميائية هي التجاذب attraction المستمر⁽⁴³⁾ ». وهذا يعني أن النظامين اللغويين للغة المصدر واللغة الهدف يكونان في حالة تجاذب وتأثير متبادل، وإن كانت اللغة الهدف هي الأكثر تأثراً، ولكن مع ذلك فهذا لا ينفي أنها تحيلنا ثانية إلى اللغة المصدر وتدفعنا إلى مراجعة بعض المعاني أو اتخاذ مواقف جديدة منها. وهكذا نصير هذه العلاقة تأسيساً لعلاقة سيميائية.

وإذا كنا قد انطلقنا من فكرة أن الترجمة هي تعبير عن الاختلاف، أو عن حالة اللاتفاهم واللاتواصل الناتج عن اختلاف اللغات فإن هذه الوضعية من المنظور السيميائي تجد لها سنداً داخل مفهوم النظام « ويصبح بنويوا في المرحلة اللاحقة لحركية الصيرورة⁽⁴⁴⁾ وهذه الحركية عن طريق تفاعل العلامات اللغوية وترابطات المعاني تنتج "وضعية ثقافية جديدة ونظاماً جديداً يعيد صياغة الحالات السابقة، وقد يؤسس لمفهوم جديد للتاريخ⁽⁴⁵⁾ ».

ونجد أن هذه الوضعية الجديدة التي أشار إليها يوري لوطمان لا تتوقف عند البناء الثقافي والنموذج الذهني وعلى مستوى العلاقات بين المجتمعين مهما كانت درجة الاختلاف والتباعد بينهما، بل إن اللغة المستهدفة (لغة الوصول) تجد نفسها تحت تأثير اللغة المترجم عنها و يتجلى ذلك في بناها السطحية والعميقة، ومكوناتها الصوتية و النظمية⁽⁴⁶⁾.

ويرى غريماس أن العلاقة السيميائية بين النص الأصلي والنص المترجم تتجلى في مستويين: مستوى التأويلي faire interprétatif للنص الأول ومستوى الفعل الإنتاجي faire producteur بالنسبة لنص المترجم⁽⁴⁷⁾ ومن خلال تلاحم هذين المستويين وتفاعلها ينتج المعنى السيميائي لفعل الترجمة.

ولكن ضمن كل هذه العلاقات أين يمكن أن نضع المترجم؟ هل يبقى ذلك الذي يقوم بعمل غير مشكور ولا محمود؟ وهل يعود زمن حنين؟

الهوامش

-
- (1) البهاء العاملي : الكشكول ص 388، ج 1 مصر 1961.
- (2) G. Mounin: Les problèmes théoriques de la traduction. p 4 .
- (3) رشيد ح. ح. الجميلي : حركة الترجمة ص 47 .
- (4) سورة الروم، آية 21.
- (5) M. Mc Luhan, Pour comprendre les médias, p 76 .
- (6) سفر التكوين / الإصحاح الحادي عشر.
- (7) J. Redouane: Encyclopédie de la traduction, p 3. .
- (8) G. Leibniz: Essai sur l'entendement humain, Vrin, Paris. 1970.
- (9) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 322 .
- (10) M. Mc Luhan: Pour comprendre les médias, p 76.
- (11) Y. K. Lekomstev: Quelques fondements de la sémiotique générale, p 236 in Travaux sur les systèmes de signes.
- (12) Op cit, p 237
- (13) A. J. Greimas et J. Courtes: Sémiotique: Dictionnaire, p 339.
- (14) حسين خمري : بيان السيميائيات، ص 28، الكاتب العربي 44 / 1999 دمشق .

- (15) نفسه، ص 32.
- (16) الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 11 .
- (17) حمزة الديب: الترجمة النقدية و إشكالية المصطلح ص 9-10، الموقف الأدبي عدد 282 دمشق 1994.
- (18) سعيد علوش: مكونات الأدب المقارن، ص 259 .
- (19) الجاحظ: كتاب الحيوان، ج 1، ص 76 ، تح.ع.هارون القاهرة 1970.
- (20) J. Redouane: Encyclopédie de la traduction, p 5.
- (21) رشيد ح ح الجميلي: حركة الترجمة، ص 33.
- (22) العاملي: الكشكول، ص 388.
- (23) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 305.
- (24) العاملي: الكشكول، ص 388.
- (25) Y. Hellal: La théorie de la traduction, p 121.
- (26) J. Redouane: La traductologie, p 22.
- (27) R. Jakobson: Essais de linguistique générale, p 78.
- (28) Op Cit, p 79.
- (29) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 325 .
- (30) G. Mounin: Les problèmes théoriques de la traduction, p 8.
- (31) حنفي بن عيسى: الترجمة في مضمار الحضارة، ص 69، الموقف الأدبي عدد 227 دمشق.
- (31) حنفي بن عيسى: الترجمة في مضمار الحضارة، ص 69، الموقف الأدبي عدد 227 دمشق.

- (32) G. Mounin: Linguistiques et traduction, p 43 in Revue de l'enseignement supérieur.
- (33) G. Mounin: Les problèmes théoriques de la traduction, p 7.
- (34) Op Cit, p 15
- (35) M. Pergnier: Théories linguistiques et théories de la traduction, p 255 in Méta (Canada).
- (36) J. Martin: Essai de redéfinition du concept de traduction, p 94 in Babel.
- (37) J. Cohen: La structure du langage poétique, p 34.
- (38) محمد نور الدين أفاية: المتخيل والتواصل، ص 163 بيروت.
- (39) حمزة الديب: الترجمة النقدية... ص 9.
- (40) J. Redouane: La traductologie, p 83.
- (41) G. Mounin: Les problèmes théoriques, p 266.
- (42) جوزيف شريم: منهجية الترجمة التطبيقية، ص 45 بيروت 1982.
- (43) Y. Lotman: Un modèle dynamique du système sémiotique, systèmes de signes. in Travaux sur les p 8
- (44) Op Cit, p 81
- (45) Ibid. 84
- (46) حمزة الديب: الترجمة النقدية، ص 12.
- (47) A. J. Greimas et J. Courtes: Sémiotique, Dictionnaire, p 398.